الدراسة المنطقية

بقلم الاستاذ عبد الفتاح الصعيدي
أستاذ الآداب بالمعهد الأزهري

الحاجة ماسة إلى الدرس في كل وقت ، فنحن عرضة لأن تصادف من الظروف العصبية ما لا نستطيع مغالبته دون أن نبذل جهدا عقليا كبيرا . وسواء أكان العمل الذي يفرض علينا إنجازه في المدرسة أو خارج حدودها ، وسواء أرغبنا في إنجازه أم لم نرغب ، فنحن أمام أمر واقع هو ضرورة الجهاد العقلي . وعلى هذا الأساس : وهو أن الحياة تمهد لنا سبيل الدرس وتهيئ لنا الظروف الداعية إليه نستطيع الحكم بأن الحياة مدرسة ، وفيها يواصل الناس جميعا بحوثهم كل بما يتناسب مع حاله ، فمنهم الطفل الصغير ومنهم الفيلسوف الكبير .

ولقد نشأت منذ آلاف السنين مسائل شغلت العقول الإنسانية وصرفتها عن كل شيء إلا البحث عن حقيقتها واستثارة دفائنها ، فقد وقف الإنسان الأول أمام قوى الطبيعة التي يناله نفعها وضرها حائرا ، ثم فكر فيها ما شاء له عقله ، ووصل بتفكيره إلى نتائج وإن لم تكن من العلم الصحيح في شيء ، إلا أنها على الأقل نتيجة جهد عقلي بذله للوصول إلى معرفة حقائق الظاهرات الطبيعية المحيطة به .

فمن أمثلة ذلك أن قدماء المصريين رأوا الشمس تشرق كل يوم في الصباح ثم تسير غربا حتى تختفي وراء الأفق ، فتساءلوا قائلين ترى إلى أين يكون مصيرها بعد الغروب ؟ ! فكروا ، ثم وصلوا عن طريق ذلك التفكير إلى أن هناك بحرا اسمه (أبي نباه أخرى) يمتد من الأفق الغربي ويتصل بالأفق الشرقي مرة ثانية ، وخيل إليهم أن الشمس بعد غروبها تمخر عباب ذلك البحر الهائل في دورها حتى تصل إلى الشرق في الصباح الجديد . ومن هنا بدأ الاعتقاد في العالم السفلي بما فيه من آلهة ! — هذا تفكير ساذج ، إلا أنه كان أقصى ما وصلت إليه القريحة الإنسانية حينذاك لتفسير هذه الظاهرة .

واليونان مثلا فكروا في عناصر الطبيعة التي تحيط بهم ، فوجدوا أن النار تحرقهم والمياه تغرق سفنهم والعواصف تهب فتتلف زرعهم وضرعهم ، ثم وصلوا عن طريق ذلك التفكير إلى أن هذه الظاهرات الطبيعية التي تمثلت أمام أعينهم في قوى الطبيعة لابد وأن تكون صادرة عن كائنات حية مفكرة بينها

وبين الأنسان فيه أوجه شبه كثيرة . وعلى هذا الأساس فكل قوة من قوى الطبيعة كائن روحى ثم جاوزوا ذلك إلى أن جعلوا من هذه الكائنات أشخاصاً يذكرونها بأسمائها ، فسكان السماء الإله (زوس) والأرض الآلهة (ديمتر) والبحر الإله (بوزيدون) إلى آخر ما هنالك من أسماء آلهتهم المعروفة

والعلماء إلى اليوم لا يزالون يواصلون البحوث ويجدون وراء كشف القناع عن كثير من المسائل الأخرى ، ثم هم فى الطريق لم يصلوا بعد إلى نتيجة حاسمة يفتح اعتبارها من عناصر العلم الصحيح البعيد عن متناول الخزعبلات ، ومن بين هذه المسائل مسألة الروح وما وراء المادة ....

والعصر الحديث حافل بالمسائل الهامة ، بعضها أورثته إيانا الأجيال الغابرة والبعض ناشئ جديد ، فبين ظهرانينا من يخاطرون بحياتهم فى سبيل كشف مجاهل القطب الشمالى ، ومن يعنون بالطيران ، ومن يبحثون فى علل الأمراض ويرجعون بها إلى أصولها ويعدونها بدواتها ، ومن وهبوا حياتهم لتربية النشء وتثقيفه ، ثم إلى جانب أولئك جميعاً نجد أناساً لا يزالون يفكرون فى طريق نيل ما يمسكون به رمقهم ؟؟ . . . كل هذه مسائل تواجه الأنسانية الحاضرة وتستنفد أكبر جهد ممكن من تفكيرها .

* * *

ولما كان الأنسان لا يولد جائزاً لبكثير من الغرائز الثابتة التى تحكم حركاته وسكناته فى الظروف التى يريد أن يأتى فيها عملا من الأعمال ، فليس من شك فى أنه يفكر دائماً فيما يجب عليه عمله ، ثم هو يتعدى ذلك الحد إلى تقرير الخطة التى يسير عليها وتحديد نوع الأفكار التى يجب أن يختبئ لها فى حياته العملية .

فمثلا إذا اختار شخص سبيلا يتوجه إليها فى الحياة ، بأن فرز مصير مستقبلة من وراء عمل معين ، فأنه يجد نفسه محروماً من الغرائز التى تبين له الوسائل المنتجة التى يستطيع بوساطتها ضمان النجاح . كذلك ليست للأنسان تلك الغريزة التى تقرر مسألة عامة تتناول الأمانة والخيانة أو الخير والشر ، وتبين له أيهما أفضل من وجهة عامة أو أيهما أفضل فى ظروف خاصة ، وإذاً فنحن مرغمون على الاستفسار والبحث والجهاد العقلى ، نحن مرغمون على أن نكون دائماً على حقيقة ما ندعيه ، قادرين على تبرير جميع هذه المسائل كلما بحث اختيارنا ، وما دمنا نؤثر العمل والتقدم على الجمود والجمود

ومن أهم الموضوعات التي يتحتم على الناس أن يدرسوها وأن يعنوا بها العناية كلها (موضوع الدراسة نفسها) ؛ فلهذا الموضوع خطره وأهميته العظيمان ، لأننا إذا لم ندرس بطبيعة الحال دراسة صحيحة فأمامنا سبيلان : الأول أن نتعلم كيف نسير فى دراستنا ، والثانى أن نضرب صفحا عن هذا التعليم ، ويكون من وراء ذلك تخبط فى الدرس وضياع فى الجهد والوقت ووصول إلى نتائج غير صحيحة أو عدم الوصول إلى آية نتيجة على الأطلاق .

« ٥ »

فإذا عالجنا المسألة من ناحية تعليم الناس طريقة الدرس الصحيح ، وجدنا أنفسنا مضطرين فى بداءة الأمر أن نلم بطبيعة عملية الدرس ! ؛ يجب معرفة شروطها وقواعدها وخطواتها . وهذا مايواجه الأمهات والآباء والمعلمين . لأن هؤلاء وحدهم هم الذين يودع بين أيديهم الناشئون لتنهدم ورعايتهم وتعليمهم طريقة الدرس الصحيح .

وأول مايحق تناوله هو تعريف الدراسة حتى لايكون فى سياق البحث شيء من سوء الفهم أو التفاهم ، وحتى نضمن الاهتداء إلى ضالتنا ضمانا أكيدا فالدرس بمعناه الأسمى عملية الغرض منها إيجاد القربة والوحدة العامة بين مختلف العلوم وربطها بعضها ببعض بحيث يسهل قيام جزئياتها الواحد على أساس الآخر قياما معقولا يطابق المنطق ، ثم ترتيب التجاريب الأنسانية بحيث يسهل علينا الانتفاع بها .

ولكن كلمة الدراسة كما نستعملها نحن فى حياتنا المدرسية تدل على أقل من هذا بكثير . فهى تتضمن كل جهد عقلى موجه إلى إدراك غاية معينة ، سواء أكانت هذه الغاية هى تذكر الحقائق والنقط الهامة التى يبنى عليها درس من دروس التاريخ أو الجغرافية واستحضارها عند الحاجة ، أم حفظ حكاية من كتاب المطالعة ، أو مذاكرة هجاء بعض الكلمات .

وفى إطلاق كلمة الدراسة على هذه المعانى العامة كلها تقليل من قيمتها ، لأنها فى هذه الحالة تشمل حركة الفكر فى إخراج الأفكار سواء أصبحت من العناصر فى تكوين العلوم المختلفة أو لم تصبح ! !

فمعرفة السنوات الهامة فى دروس التاريخ وحفظ القصائد عن ظهر قلب فى دروس المحفوظات واستيعاب التعاريف والحدود فى المواد المختلفة ، كل هذه لايصح أن تكون من الدراسة الصحيحة فى شيء قليل ولا كثير ولكن الكثير من المعلمين يظلون على الجهد الذي يبذله تلاميذهم فى سبيل

تحقيق هذه الغايات كلها نفس الأسم الذى يطلقونه على جهد يبذله فيلسوف يبحث فى إحدى مسائل الكون الغامضة ، ويصل بأبحاثه إلى نتائج خطيرة أهمها إيجاد العناصر التى تدخل فى تركيب العلوم ، والواقع أن هذين النوعين من الدراسة مختلفان أختلافا عظيما : فالنوع الأول عمل ميكانيكى محض ، تكون النتيجة المباشرة التى يؤدى إليها زيادة المعلومات فحسب ، أما النوع الثانى فعنصر بعيد المدى ، وتكون نتيجته المباشرة ترتيب الأفكار وجعلها متقاربة بحيث يقوم منها بحث منطقى صحيح ، أو قل إنها تتضمن التفكير الصحيح .

وخلاصة القول فان ذلك النوع الأخير من نوعى الحركة العقلية هو الذى نعتبره درساً صحيحا ، وهو الذى قصدنا إلى بعثه وإشاعته فى هذه المقالات .

« ٥ »

والكثير من المعلمين على أن ماهية الدراسة إنما هى التخيل والتذكر والتفكير وأمثال هذه الحركات العقلية ، أو بمعنى آخر أنهم يعتبرون الدراسة عملية سيكولوجية محضة ، وليس من شك فى أن هذه الآراء ليست فى شىء من الطريقة المثلى للدرس ، لأن القائلين بها قد أغفلوا عنصرا هاما هو تحديد الكيف والزمان اللذين يهيأ للانسان فيهما أن يتخيل أو يذكر أو يفكر . أن عملية الدرس يتحتم أن توضح وتفسر بحيث لا يداخل النفس أى شك فى أمرها ، وبحيث لا تكون غامضة مغلقة كما هو حالها فى هذا الاعتبار السيكولوجى الذى قد يدخل ضمنا فى عناصر عملية الدرس وقد يكون بعيداً عنها .

ولو أننا معاشر المعلمين فهمنا طريقة الدرس الصحيح فهما دقيقا وأصبحنا قادرين بحق على تلقينها لمن نعنى بتثقيفهم وتهذيبهم لأحلت عقدة العقد فى شئون التربية ، ذلك ما سأحاول أن أوفيه حقه إن شاء الله . . .

(يتبع) عبد الفتاح السرنجاوى

أعتذار

ضاق نطاق العدد عن نشر كثير من مقالات حضرات الأخوان وان شاء الله سننشرها تباعا مع تقديمنا بجزيل الشكر لحضراتهم على أرسال مقالاتهم القيمة